



رسائل الثورة السورية المباركة (96) إصلاح أهل السلاح

كتبت مرة أقول إن سوريا لا تريد مقاتلين من خارجها، فعاتبني بعض الأفضل عتاباً رقيقاً لأنني حَرَمت بدعوتي من يريد الجهاد من غير السوريين من فرصة الجهاد الصادق وحرمت سوريا من خبراتهم وخیراتهم. وليس الأمر كذلك، فإن سوريا لا تحتاج إلى الرجال حقيقة، إنما يكفيها أن تدمّوها بالمال والسلاح، أما المقاتلون من أهلها فما أكثرهم وما أشدّ رغبتهم في القتال لو امتلكوا السلاح.

هذه الأولى، الثانية هي أن دخول مقاتلين إلى سوريا من غير أهلها من شأنه أن يعُقد قضيتها أمام القوى الدولية. ولا تظنوا أننا نهتم بتلك القوى لسواد عيونها أو لزرقتها، إنما يهمنا أن لا يعوق عائقٌ من أي نوع الجهد الذي تُبذل لتوفير السلاح، ولا ريب أن امتلاء الساحة بمقاتلين متعددي الأصول والموارد من شأنه أن يعطل تلك الجهود.

الثالثة أهم مما سبقها، وهي التي لها علاقة بهذه المقالة، ودعوني أولاً أمثل بمثل: في المناطق الاستوائية تنتشر أنواع الحُميات - كالملاريا والبلهارسيا ومرض النوم والعمي النهري - فيكثر وجود الأطباء المختصين بالأمراض الاستوائية (المدارية)، ولو أن طبيباً من أطباء بريطانيا (أو غيرها من البلاد الشمالية الباردة) تطوع للمساعدة في بعض المناطق الإفريقية التي تستوطنها تلك الأمراض وسافر إليها من غير سابق تأهيل ولا تدريب فقد يكون عاجزاً عن المساعدة، بل إنه قد يخطئ في التشخيص ويصف دواءً غير الدواء فيضرّ ولا يفيد.

في سوريا أمراض كثيرة تحتاج إلى أطباء أخصائيين، ولكنها ليست من أمراض الأبدان التي يعالجها الأطباء، إنها من أمراض النفوس التي يعالجها الدعاة، وهي مما يعرفه أهل سوريا ويستطيعون علاجه أفضلًّا من غيرهم من لا يعرف تلك الأمراض ولم ينشأ وسط المصابين بها من أهلها. الغرباء عنا - من إخواننا في الدم والدين - لا يعرفون أمراضنا وسوف يفشلون في علاجها، بل يغلب على الظن أن يُعجلوا بالعلاج الخطأ فيسيئوا من حيث ي يريدون الإحسان.

أرسل إلى أخ كريم من غير السوريين منذ شهور يطلب مني أن أكتب عن المقاتلين الذين يحملون البندقية بيد ويحملون الدخينة (السيجارة) يدخنونها باليد الأخرى؛ قال: كيف ينصر الله أولئك المدخنين؟ لقد استنكر الأخ عليهم أنهم يدخنون التبغ، فكيف لو علمت - يا أخ الإسلام - أن فيهم من يدمن الحبوب المخدرة وأن فيهم من لا يصلح وفيهم من يرتكب

الموبقات؟ وماذا كنتَ صانعاً لو أنك عاشرتهم وعشت بينهم؟ لا أعلم عنك تحديداً، إلا أنني أعرف أن كثريين من المتدربين المخلصين الذين لا يعرفون أولئك الناس سيعالجون فيعالجون، فيبدؤون بما يرونه "المرض" وما هو سوى "العرض"، فيتنازعون هم وأهل السلاح ويقع الخلاف والتفرق ويصيبنا الوهن.

الطبيب لا يصنع ذلك. إنه إذا جاؤه بالمريض يهدي من الحمى - مثلاً - لم يجلسه في كرسى ويجلس في كرسى مقابل ليناقشه في صواب هذيانه من خطئه. إنه يهتم أولاً بأن يخفض حرارة المريض حتى لا يتلف الدماغ. فإذا فعل وانخفضت الحرارة بدأ بتحقسيّي أسبابها الباطنة، ثم عالج الأسباب بما يعرفه الطب من عقاقير. إنه يركز همه لعلاوة أصل المرض، فإذا عولج عاد الجسم إلى حرارته الطبيعية وانقطع المريض عن الهذيان، وعاد المريض معافى سليماً نافعاً لمجتمعه وللناس. هذا ما يصنعه الطبيب الحاذق الخبر بالمريض، أما المعالج الجاهل العجوز فإنه سينشغل بالرد على هذيان المحموم ويفغل عن الحمى التي تفتكت بالبدن، أو يتجاهل سببها الباطن فلا يدركه ولا يعالجها، وقد يتوجه بالتشخيص ويقدم العلاج الخطأ فيموت المريض.

* * *

لا أحد يملك أرقاماً دقيقة عن عدد المقاتلين الذين يحملون السلاح في سوريا اليوم، ولو شئت التقدير لعددهم عشرات ألف، ربما ستين ألفاً أو سبعين، فمن أين جاء أولئك المقاتلون؟ إنهم يأتون من ثلاثة مصادر، الأول والثاني هما سبب العدوى، والثالث هو سبب العلاج بأمر الله، لو أحسن أصحابه الفهم وأحسنوا العمل.

المصدر الأول الذي يأتي منه المقاتلون الأحرار هو الجيش السوري، فهم جنود نظاميون منشقون آثروا التخلي عن النظام المجرم والاصطفاف مع ثورة الأحرار. ماذا تنتظرون من عناصر الجيش النظامي؟ هل تعرفون البيئة التي منها يخرجون؟ إنها واحدة من أقدر البيئات التي يمكن أن يعيش فيها إنسان على ظهر الأرض. الكفر في الجيش السوري هو ملح الكلام، فلا تكاد تخلو من كلمة كفرية فاحشة جملة طولها مئة كلمة، ولا يكون العسكري مقبولاً بين الرفاق حتى يبلغ أسفل السفاله الأخلاقية فيستمرى الفواحش كلها والموبقات، ما تعلمون منها وما لا تعلمون. مع ذلك فإن العسكري الذي يتخذ قرار الانشقاق وينفذه جدير بأن يوضع في العيون، فإنه قد علم أن ذلك القرار هو أخطر قرار في الحياة، وقد يكون الأخير، فكم من منشق لم يقطع الأمتار العشرين بين العبودية والحرية، وكم من منشق وقع في الأسر قبل أن يبلغ بر النجاة فذاق العذاب الأليم الذي ينتهي بالموت في كثير من الأحيان، عليه رحمة الله.

أولئك العسكري - من ضباط وجند - فيهم من هو على خلق ودين، بل إن فيهم من هو في أعلى مقامات التدين والخلق بكرائهم الأخلاق، لم تلوثه البيئة التي عاش فيها ولم تُصبِّه بالأمراض. ولكن الأكثرین ليسوا كذلك؛ الأكثرون أصحابهم العدوى وفتكت بهم الأمراض. إنهم ليسوا أحسن الناس تربية ودينًا بالتأكيد، ولكنهم من أصدق الناس سريرة ومن أشجع الناس شجاعة على ظهر الأرض. إنهم يحتاجون إلى صبر لعلاج فساد تربيتهم كما يحتاج المريض إلى صبر لعلاج فساد صحته؛رأيتم طيباً احترق مريضه لشدة مرضه أو تخلى عنه ورماه على قارعة الطريق؟

المصدر الثاني الذي يأتي منه الجنود الأحرار هو "العصابات" الشعبية التي تنتشر عادة في الأحياء الفقيرة في كل المدن (من نوع فتوّات وذكرية الحارات)، وهي تضم في الغالب شباناً ورجالاً من أهل الشجاعة والمرءة الذين لم يجدوا لهم مكاناً في المجتمع. هؤلاء ليسوا مجرمين سلبيين ولا يرتكبونجرائم الشنيعة والموبقات الكبار. ربما يقتصر شغفهم على السطو والتهريب وتحصيل الإتاوات، ولو أنهم عاشوا في بلاد حرمة تحترم مواطنها وتمتنع الفرصة العادلة في الحياة الكريمة لكانوا (أو كان أكثرهم) من كرام الناس ومن بناة الوطن، ولكن النظام الآثم الذي استأثر بالخيرات وأثر بها عبيده المقربين حرم أولئك المواطنين الآخيار من خيرات الوطن وأجلهم إلى ما رأيتم. النتيجة الحتمية كانت انتشار الجهل بين أولئك الناس ووقعهم في الشر والفساد، فصار منهم من يدمّن أنواع الحبوب المخدرة ومن يقع في الحرام، ونشأ كثيرون بعيدين

عن الله وعن الخلق القوي.

هل تعرفون شهيد حمص الشهير، بلال الكن، الذي لقي الله وعلى جبهته علامة السجود؟ لو أن القضاء تقدم به ثلاثة أشهر لمات عاصيًّا لا يعرف الله ولم يسجد له سجدة، ولكن الله أكرمه فهداه واستشهاده وهو على طاعة وخير، - رحمة الله -. كم من بلال يعيش بينما على ضلاله ولا يحتاج إلا إلى التوجيه الجميل والحكمة في الخطاب!

المصدر الثالث الذي يأتي منه الجنود الأحرار هو المجتمع السوي الذي ينتهي إليه ويعيش فيه غالبية السوريين.

إنهم المتطوعون الذين يضحى الواحد منهم بحياته المستقرة ويهرج أسرته ويبعد عن والديه وعن زوجته وبنيه ليصبح جنديًّا من جنود جيش التحرير، بارك فيهم الله. هؤلاء عامتهم من المتفقين وكثير منهم، أو أكثرهم على التحقيق، من المتدينين الملزمين الذين يملكون الوعي والعلم والحماسة والإخلاص. أولئك هم الأطباء.

يا أيها المتدينون الملتزمون الواقعون المخلصون من حملة السلاح، من متطوعين و منتسبين عن جيش الاحتلال الأسدية، يا أيها الكرام: إني لا أجد للمصابين أطباء سواكم، ولا أكاد أقول إلا أن علاج أصحابكم آمنة في أعناقكم، بل إنه فريضة عين على كل قادر منكم، بل أنه فرصة الفرص والكنز الذي لو ضاع لم يكددع في السنين الطوال. فإياكم، إياكم أن تهدروا الفرصة، وإياكم أن تضنوا على المرضى بالعلاج.

كنت أتحدث مرة مع أحد مجاهدي الجيش الحر في دوما، وعرفت أنه من منطقة أخرى في سوريا، فسألته: لماذا تركت منطقتك وجئت تقاتل هنا؟ أليس أهل كل منطقة أولى بمنطقة تم؟ ثم أليس التحاق المقاتل الحر بمنطقة أكثر أمنًا للطرفين، له ولمضيفيه، لأنه يختلط هناك بأهله فلا يكون هدفًا مكتشوفًا لحملات الأمن ولا يعرض مضييفه إلى الخطر؟ قال: اخترت ريف دمشق لأن المقاتلين هنا على درجة كبيرة من التدين والالتزام. قلت له: لكن أنت مطالب بأن تدعوا أهل منطقتك، لأن تعليم الجاهل حقًّ على العالم وأن الدعوة واجبة في مواطن الحاجة إليها، فإذا تخليت أنت وأمثالك عن دعوة أهلك وهدايتهم إلى الحق - بإذن الله - فمن يدعوهم؟ أما إنك لتشبه الطبيب الذي يترك المستشفيات لأن قاطنيها مصابون بالأمراض والأوبئة وينذهب إلى البساتين والرياض لأن زوارها معافون أصحاء.

هذه هي القاعدة الأولى: مسؤولية دعوة كل حي تقع على أهل الحي أنفسهم، الأقرب فالأقرب، فلا يتخلَّى أحدٌ عن أهله ولا يزهد في دعوتهم، فهو الأقدر على فهمهم والتواصل معهم وتوصيل الفكرة والدعوة إليهم، وصبرُه عليهم - ولو كانوا أبعدَ عن الدين والصلاح من غيرهم - فيه الأجر الأكبر - إن شاء الله -.

القاعدة الثانية: العلاج يحتاج إلى صبر وأناة ولا يتم إلا في الوقت الطويل، فلا تجعلوا على إخوانكم المسلمين الذين يأتونكم على الحالة التي وصفتها آنفًا. ألم نتفق على أن العساكر المنشقين يخرجون من أسوأ وأقذر البيئات على وجه الأرض؟ فهم إذا وصلوا إليكم كانوا كأشد المرضى مرضًا. هل يأتيك مريض مُدْنِف قد فتك به المرض فتأمره بالمشاركة في سباق الماراثون؛ إنه بالكاد يستطيع أن يقف على رجليه، ولو أنه بدأت بعلاجه العلاج الحاذق فسوف يقترب من العافية يوماً بعد يوم، فيمشي في الأيام التالية خطوات بمساعدة وتدعم، ثم يمشي قائماً وحده بلا سند، وربما مشى بعد شهر مسافة ميل في الطريق، وقد يبدأ في الهرولة بعد ثلاثة أشهر، فإذا انقضت ستة أشهر من العلاج وصلَّبَ عوده فادفعه إلى الماراثون ولا بأس عليك. هذا هو التدرج المطلوب في العلاج، وكذلك فافعل مع الذين أصابتهم أمراض النفس فساعت أخلاقهم ورقَّ دينهم، اصبر عليهم واحتمل منهم ولا تتعجل، وتنذر أن الإسلام ربَّ الجماعة المؤمنة في بضع عشرة سنة، لم ينقلها من الكفر إلى الإيمان في أسبوع أو أسبوعين ولا في شهر أو شهرين.

القاعدة الثالثة: ابحثوا دائمًا عن الأسلوب الحكيم وعيظوا بالحسنى. لن يبلغ إخوانكم المسلمين - مهما ساءت أخلاقهم - ما بلغه فرعون منسوء، ولقد أمر الله نبيَّه الكريمين، موسى وهارون - عليهما سلام الله - بمخاطبته بالخطاب اللطيف

الرقيق ودعوته بالكلام الليّن الرفيق، فإذا كان ذلك هو ما اختاره الله لفرعون فلا ريب أن جنود الجيش المنشقين وال العسكريين المتطوعين يستحقونه ويستحقون خيراً منه.

حدثني أخ من المجاهدين أنه سمع لفظاً كفرياً من أحد قادة الكتائب (في منطقة لا أريد أن أسميها)، فأنكر عليه وعنفه، فطرده القائد من منطقته ومنعه من دخولها! لو كنت مكان ذلك الأخ وسمعت لفظة الكفر من صاحبي لما عنفته ولما اختصمت وإياه، بل ربما أجبته بجواب معجل أو جواب مؤجل. الأول كان أقول له: ألسنا صديقين ورفيقين سلاح؟ سيقول: بلى، نحن كذلك. سأأسأله: هل يصح أن تسب أمي؟ ربما فوجئ وقال: بالطبع لا أفعل. أقول له: هل تسب أبي؟ هل تسب أخي أو أختي؟ بعد ذلك سأقول له بكل ما أستطيع من ود واسترخاء: وأنا كذلك لا يمكن أن أسب أمك أو أباك أو أختك أو أخاك، لكن أنت آذيني بأكثر من ذلك. إن ربي أحبت إلی من أمي وأبي ومن إخوتي وأخواتي ومن نفسي وزوجتي وأولادي، فلماذا آذيني بسبيه؟

أو أجيده جواباً مؤجلاً. سأنتظر لحظة يشتد فيها القصف ويحمي الوطيس، فإذا سمعته يذكر الله ويدعو الله سأقول له باستغراب مصطنع: لماذا تطلب العون من عدوك؟ سيقول مدهوشًا: عدوي؟ الله عدوي؟ هل جننت؟ سأقول له بكل هدوء: سمعتك تسب حافظ وبشار فلعلت أنهمًا لك عدو، ثم سمعتك تسب الله بالألفاظ نفسها فقدرت -بالقياس- أنه عدو كالعدوين الآخرين.

أنا أعلم أن المحافظة على الهدوء ورباطة الجأش وإجراء حوار هادئ كالذي وصفته في المثالين السابقين أمر عسير غير بسيط وأنه يحتاج إلى قدر كبير من مغالية النفس، ولكن متى كان علاج المصابين والمرضى من أيسير الأمور؟ أليس كلما زاد مرض المريض أو إصابة المصاب زادت صعوبة علاجه؟ لو كنت طبيباً وجاؤوك بفتى قد مزقت الشظايا بطنه أو اخترفت عنقه فلا يسعك أن تشمئز وتتأى عن العلاج لأن الحالة عسيرة، ولسوف تبذل جهداً وتختيط الجرح ولو بدا لك أن فرصة النجاح ضئيلة. تخيل أنك كنت في الموقف الذي وصفته قبل قليل ثم رددت بأحد الردين (المؤجل والمعجل): هل تظن أن يختص الرجل وإياك أم تتوقع أن يتراجع عن ذنبه وأن يعتذر منك ويستغفر الله؟ ولو أنك أضفت عندها فقلت له: "أنا أعلم أنك لم تقصد ما تلفظ به لسانك، وأن هذا من أثر العهد الأسدية المظلم الطويل الذي عشناه في سوريا، فهل تحب أن أذكرك إذا سهوت مرة أخرى؟" هل تتوقع أن يكابر ويرفض أم تظن أنه سيوافق ويشكرك على التذكرة؟

* * *

ربما كان المجاهدون الصالحون المتدينون هم الأقدر على علاج إخوانهم من حمّلة السلاح الذين يحتاجون إلى علاج وإصلاح، لأن طول الاتصال وقرب الصلة يمنحانهم فرصة متميزة للتأثير والتغيير لا يكاد يملكونها غيرهم، ولكنهم ليسوا الوحيدين المسؤولين عن الدعوة والإصلاح، بل يشاركون في هذه المهمة الجليلة كل قادر عليها من الصالحين من جمهور الحاضنة الشعبية والاجتماعية التي يعيش المسلحون ضمنها في القرى والمدن، الذين يختلطون بالمقاتلين فيعايشونهم ويؤاكلونهم ويشاربونهم ويسامرونهم، ويكون بينهم وبينهم ما يكون بين الخلآن والأصدقاء من ود وقرب وصفاء.

يا أيها الناس: إن في الأمة خيراً كثيراً، ولربما ترين على قلوب الرجال الذنوبُ الخفاف أو الثقال، ولكنكم إن أحسنتم جلاء تلك القلوب -بالدعوة الحكيمية والموعظة الحسنة- انجلت كما تنجلى المرأة فعادت نقية صافية كقلوب الأطفال، فاستعينوا بالله وترفقوا بالدعوة وأحسنوا المقال، وفكم وأثابكم الله.

المصدر: الزلزال السوري

المصادر: